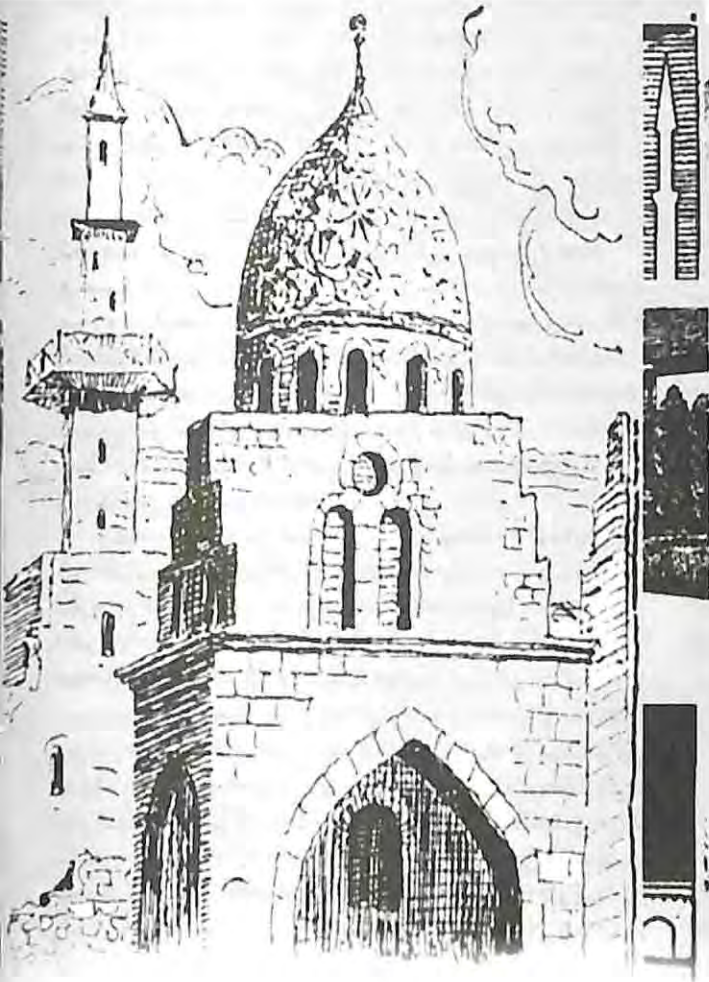


# نعمة جديد



حاجات للمطبخ، ويهم بدعوتها إلى الداخل ليأخذ منها شيئاً، ولكنه يذكر مشروع القصيدة، ويفيض في روحه ألق الوجه النقي ويغمره بهاء السماء العظيمة، فيعتذر، ويصرفها بسلام. ويؤوب إلى مكتبه، يقعد وراء طاولته، يستل بعض الأوراق، ويشرع في كتابة مطلع القصيدة. لكن دقائق ساعة الجدار تغلب همس الكلمات، ويضطر إلى النهوض، فيرتدي معطفه، يحمل تقريره، يلقي على الشرفة نظرة، يتزود من الالق والبهاء، ثم يمضي هابطاً على الدرج الغائص في العتمة، حتى يبلغ الشارع، فيدخل في الزحام، وسط الضجيج والغبار ونداء الباعة، وسخام عوادم السيارات. وهو ماض على الرصيف يلمح طفلاً يهم بقطع الشارع على غير هدى، وتكاد سيارة عابرة تخطفه، فيسرع إليه وينتشله من بين نسيج

بعد تسع ساعات من النوم العميق في غرفته الداخلية المعتمدة، خرج من الباب الضيق إلى الشرفة الواسعة، ملأ رثتيه بهواء الدنيا، استقبل العالم، أحس كأنه يسبح في الكون، تحسس الأشياء من حوله، فتح عينيه للنور، شعر كأنه اكتسب حياة جديدة، فجأة انتابه بكاء لم يعرف سره.

د. أحمد زياد محبك  
سورية

دخل الحمام، أزال ما علق بجسده من عرق النوم، ارتدى ثياباً جديدة، أعد كأس حليب حمله إلى الشرفة، قعد يرتشف بهدوء، وهو يتأمل شروق الشمس، وديب الحياة وصخبها، وهو يطل عليها من الدور السابع. نظر إلى أسفل، فرأى الأطفال يلعبون الكرة، تمنى أن ينزل ليلعب معهم، ولكن سرعان ما نظر إلى أعلى، فرأى السماء والغيوم المذهبة بشمس الصباح، وطيوراً محلقة، ونفحته نسمة ندية، ف شعر ببهاء الكون وعظمته. تذكر الوظيفة، أسرع إلى مكتبه، قعد وراء طاولته مثل تلميذ، وأخذ يحضر التقرير، يجب أن ينجزه على أحسن وجه، ليحظى بالقبول، أحس بصعوبة الكتابة، وكأنه طفل يتعلم الأبجدية، أعاد الصياغة، جود خطه، ملأ سلة المهملات بالأوراق الممزقة، راجع الصيغة الأخيرة، أحس ببعض الرضا، لا بد أن يخرج من غرفة المدير متوجاً بالتفوق والامتياز.

رجع إلى الشرفة، تلقى نسيمات جديدة، فقد علت الشمس، وملا أشعتها السطوح، تفتحت في العمارات أمامه وحوله نوافذ كثيرة، وأزاحت ستائر، حانت منه نظرة إلى شرفة مقابلة، فرأى وجهاً مدوراً لصبية حسناء رشيقة القوام، وهي ترش الماء على أصيص زهر، ثم تحنو على زهرة فتشمها.

وباندفاع غير مقصودة ناداها، فالتفت إليه، لوح لها بيده، فردت شعرها إلى وراء بحركة رشيقة، ثم غابت في الداخل انتابته موجة من الحنين والابتهاج والرغبة.

أحس كأنه طائر يحلق في غاية بعيدة، تحمله نسيمات ناعمة، فتهتز لها الأغصان، وتتمايل الأوراق، وتغرد الجداول، ويضوع عبق الورد، شعر بميل جارف إلى كتابة قصيدة، كلماتها تتوارد على ذهنه تتري، بات يرى مطلعها منسوجاً في صفحة خياله، وقد سطر بحروف من شذى، تتعانق فيها بهجة الوجه النقي المدور، مع بهاء السماء المتألقة بالنور.

لكن رنين جرس الباب بدد الحروف، وأضاع الملامح، من يقرع عليه الباب في مطلع النهار المتألق ببهاء وصفاء؟ أي تكدير؟ أي طارق؟

يفجؤه أمام الباب وجه مصبوغ لامرأة خبيرة تعرض عليه أباريق وصحونا من زجاج رخيص ملون، وبضع

# دائما

السيارات المتلاطمة، ويعود به إلى الرصيف الآخر، وهو غير مصدق أنه نجا.

وعلى الزاوية أمام المديرية، يرى قعيدا يمد يده يستجدي الناس، فيحس بنصال تغوص في أعماقه، فيستل من حافظته قطعة نقود، ومن غير أن ينظر إليها، يضعها في يد السائل ويمضي.

يخطو داخل المديرية خطواته الأولى، وهو يشعر بالرضا والانشرح، يعرج على الديوان يحيي الموظف المختص، يسلمه التقرير، ثم يمضي إلى مكتبه، وهو يمر في أبهاء فخمة، يستشعر خلالها البهاء والقدسية والعظمة.

يدخل مكتبه، يلقي على زملائه تحية الصباح، ثم يشاركهم ارتشاف القهوة، وتبادل الأحاديث، يطالع جريدته، يقرأ أسعار الذهب والعملات، ثم يشرع في عمله.

يراجع الملفات، يدقق في الأوراق، ويصادق على التوقيعات، منهمكا في عمله يحس بإيقاع داخلي جميل، ويرى انبساط السماء، وتفتح الأنوار، وانثيال الشذى، فينتشي بفيض من الألق المفاجئ يحس بدافع قوي إلى الشروع في كتابة القصيدة.

ولكن صوتا أجش لمراجع وقح يبدد عالمه كله، ويخرجه عن طوره، ويضطره إلى رفع صوته والخصام، ويغيب الإيقاع.

مرة أخرى، وهو وراء مكتبه في المديرية تقتحمه بائعة هوايات سخيقة، وهي تحمل جوارب وميداليات وهدايا وعطورا رخيصة، تعرضها على زملائه، ثم تلج عليه في العرض، وتهمس له إن لم تعجبك هذه الحاجات ففي داخل غرفتي ببיתי حاجات أخرى ترضيك أكثر.

يغلي الدم في عروقه، يتوق إلى اقتحام المجهول وخوض الغمار، وتنقشع أمامه السماء المتفتحة عن نور كالوردة العطرة، ويطل الوجه المدور النقي، فيشيع عن البائعة، ويدعو لها بالسلامة.

ويكب على العمل، ينغمس فيه، يستنفذ كثيرا من المداد، وهو يضع الاختام والتوقيعات، ويستقبل مراجعين كثيرين، يحل كثيرا من المشكلات، يفك عقدا، يلغي عقوبات، يمنح إعطيات، يزيد في المكافآت، يذكر الوجه النقي والزهرة العطرة وشعاعات السماء، فيشعر مرة أخرى بنقاء الكون وبهائه، وتصيح في أعماقه موسيقا علوية، ويدرك روعة الكون ونظامه، ويهم بكتابة القصيدة.

ويرن جرس الهاتف، وإذا زوجته تخبره بوصولها للتو، والوقت ما يزال ضحي، فيضطر إلى أخذ إجازة لساعة واحدة، ويمضي يقطع الطريق إليها عدوا، وكل قوى الرغبة والشباب تتفجر فيه، ويستوقفه صديق، يسأله عونا، فيقدم إليه بطاقته، ويطلب منه إرفاقها بملفه، ويعدده أن يحدث المدير في أمره، ثم يتابع مضيه إلى زوجته، يرقى إليها الأدراج، يصعد إلى الدور السابع، يقرع الباب، وتفتح له، تمنحه زهورا برية نذاها طل الصباح البكر، ويطوف بها أبهاء المنزل الذي أعده لها، وفرشه

وجهره بكل ما يقدر عليه، ثم يصب لها رحيقا صافيا في كأس من زجاج نقي شفاف.

ويرجع إلى مكتبه في المديرية وهو يحس بالغبطة والاكتئاب، فقد أزهقته الأقساط، وتكاثرت عليه الديون، للمنزل والأثاث والهدايا، ولا يجد من خلاص سوى الاستغراق في العمل، والغوص بين الملفات.

ويرفع سماعة الهاتف، يكلم المدير، يوصيه بالصديق، وفعلًا، يدخل عليه صديقه، وقد عينه المدير في مكتبه، فيسر به، ويقدمه إلى زملائه، ويطلب لهم جميعاً القهوة احتفاء بصديقه، ثم يطلعه على تفاصيل العمل ودقائقه وخفاياه، ولكن الصديق يؤكد له أن البطاقة التي قدمها إليه قد ضاعت منه، وأنه اضطر إلى الاستعانة بتوصية من موظف كبير.

وبعد دقائق تصله ملفات كثيرة، عليه تدقيقها والتوقيع عليها، ثم إرسالها إلى التوثيق والحفظ، ويشرع كعادته في العمل بنشاط، ويمر به ملف صديقه، يقلب أوراقه، وإذا ببطاقته قد علقت على طلب التعيين، ويقرأ حاشية المدير، وإذا فيها الموافقة على التعيين وفق توصيته.

قليل الظهيرة تتصل به زوجته لتخبره بقدوم ولده، فيسر لذلك، ويبارك لها بسلامته، ويهديها الزهور والقبلات، ويرجوها أن تعني به.

ويقتاطر عليه المراجعون، وتتراكم أمامه الملفات، ويحس بظهره ينحني، وبصره يكل، ويرى في المرأة الشيب يغزو رأسه، ويضطر وكيل المدير إلى إجازة طويلة، فيكلفه المدير بأعماله، فيجد نفسه وراء مكتب فخم، وأمامه عدة أختام، وإلى جانبه ثلاثة هواتف، ويدخل عليه الآن الخاص بفنجان قهوة متميز، ثم تدخل عليه السكرتيرة تحمل البريد، فتغمره بعبق من العطر والدفع.

ويدخل عليه صديقه، فيعانقه ويهنئه ويبارك له، وينشر بين يديه كلمات التبريل، ويقعد إلى جانبه يهمس له بكلمات، يزوده بحقائق يجهلها عن زملائه وزميلاته، وعن المدير وعن سائر المستخدمين، ثم ينصح له بصبغ شعره، ووضع نظارة طبية، وشد قامته، والاهتمام بمظهره.

ويرن جرس الهاتف، وإذا زوجته تهنئه بقدوم ولده الثاني، فيفرح، ويهنئها بالسلامة.

وقبل أن يضع السماعة، يرن جرس الهاتف الداخلي، وإذا المدير يدعوه إلى اجتماع عاجل مع رؤساء الفروع، فيسمع أشكالا من الثرثرة والمهارات والاختلاف والتكتل والصدام والعرقلة والالتفاف، لا لغاية سوى الكسب الخاص.

يرجع إلى مكتبه مغتما، لا يدري ما يفعل، يراجع بعض الملفات، يتأمل المكتب الفخم والخزانة الفاخرة، فيشعر بالزيف والسخف.

ويرن جرس الهاتف، وإذا زوجته تخبره بقدوم ابنته، فيفرح فرحا حقيقيا، ويهنئها بالسلامة.

مع نهاية الدوام، وهو يغادر المديرية، يفكر في تقديم استقالته.

يمضي عبر الشارع، متهدم الكتفين، ثقيل الخطا، لليل النظر، وقد هدته الأعباء.

وهو على الرصيف تصيبه كرة يقذفها أولاد يلعبون، فيشتتهم في سره، ويمضي وهو أشد اكتئابا.

على قارعة الطريق يرى متسولا يمد يدا مقطوعة، فيشيع عنها

بوجهه، وهو لا يكاد يصدق أنها مقطوعة حقيقة.

في الحمام والماء البارد ينسكب عليه رذاذاً، يندم على مافات من عمره، ويتمنى أن لم يعمل موظفاً، أو على الأقل لو لم يباشر عمله وكليلاً للمدير، ويذكر القصيدة التي هم بكتابتها في الصباح، ويأسف لأنه نسيها، يحاول استرجاع صورة الوجه النقي، والسماء المشرقة، ولكنه يجد الصورة غائمة، بعيدة بعيدة، ويصمم على النطق ببعض الكلمات، لعلها تشكل مطلع القصيدة، ولكنه يعجز، ولا ينقذه سوى نقرات زوجته على باب الحمام، وهي تناوله المناشف.

ويشارك زوجته وأولاده فرح نجاحهم، يجلس معهم إلى المائدة، وينضم إليهم خطيب ابنته، فيشعر بالبهجة، فقد كبر الأولاد، ويحس في داخله بالهرم، ولكنه يسلم للزمان، فتلك هي سنة الحياة.

ويمضي إلى غرفته ليترتاح قليلاً، ولكن جرس الهاتف يرن، وإذا صديقه يخبره أنه كلف بالإدارة، وحين يسأله عن المدير، يؤكد له أنه ظل يحفر له حتى تمكن من الإيقاع به، فيصمت، ولا يجد ما يقوله، ويعتبر عليه صديقه، إذ لم يسمع منه كلمة تهنية.

يمضي إلى مكتبه، يخلو إلى نفسه، يرى الدنيا سوداء، يكاد يخنق، يقرر كتابة القصيدة، لعله ينسى، ولكنه يعجز.

يرفع سماعة الهاتف، يتصل بصديقه، يرجوه، بوصفه المدير الجديد، أن يقبل استقالته من الوظيفة.

ثم يطلب من زوجته وابنته ولديه أن يجهزوا أنفسهم لجولة مسائية في الأسواق.

تحتويه والأسرة ضجة الأسواق وصخب الباعة وضوضاء السيارات، تبهره اللافات المضاء الملونة، يشعر كأنه يرى مدينته أول مرة، يحس بالحرية والبهجة والانعتاق من الوظيفة والعمل، يسعد إذ يرى الفرحة تملأ أفراد أسرته، فيقرر دعوتهم إلى العشاء.

في المطعم تنفحه نسمات ناعمة، وهو يرى زوجته وابنته ولديه، وقد تحلقوا حول المائدة، تتسرب إلى أعماقه رائحة الشواء وتدابع روحه نفحات عذبة، وهو يرى نافورة المياه، والردان يتطاير منها عبر مهرجان من الأضواء والأنغام، يحس كأنه يحلق في سماء من الصفاء.

وحين يأتي النادل بالحساب يمنحه عطاء جزلاً.

في الطريق إلى البيت تقترح عليه زوجته أن يعمل في التجارة، يرى أحد ولديه توظيف تعويضه الوظيفي لدى أحد المستثمرين، تعترض البنت مقترحة تفرغ أبيها للمطالعة والتأمل، وتقول حسب ما عاناه في حياته.

اقترح ابنته يشيع البهجة في نفسه، ويرى فيه لو تحقق فرصة مواتية لنظم القصيدة.

إشارة المرور تخزي لهم ليعبروا مع العابرين، والنشوة ما تزال ترفرف فوقهم، وتخطو الأم، وإذا سيارة مسرعة تدهمها.

أمام موت زوجته المفاجئ يحس كمن يطل على هوة معتمة، يشعر بالفراغ والعدم والعبث، ينتابه يأس قاتل يدرك أن العمر قد تقضى من غير أن يحقق شيئاً.

يخرج إلى شرفته، وقد انتصف الليل، تحتويه ظلمة قاسية روحه في داخله محتجبة، يرفع رأسه إلى فوق، فلا يرى السماء

ليس سوى عمارات شاهقة نوافذها مضاءة بمصابيح خافتة يتخيل ما وراءها من متعة أو رفاهية، فيغلي الدم في عروقه، وينظر إلى أسفل، فيرى سيارة فارغة تتهادى، ونغم صاحبها يتناثر من نوافذها.

ويهبط على الدرج، أنفاسه تلهث، يندفع وكأن نوابض تحرك جسده، وروحه مختنقة.

يدخل مكتباً لتأجير السيارات يتسلم مفتاح سيارة.

يخرج، يقود بسرعة كبيرة يتمنى أن يحطم السيارة ويتحطم بها، يود أن يدوس العشرات العشرات، يأسف لحياته، لم يفعل شيئاً، لم يقتل، لم يسرق، لم يرتش، يود فعل شيء.

يلمح رجلاً وامرأة خارجين من ملهى، من مطعم، من مدخل عمارة، لا يكاد يميز الرجل، هو صديقه المدير، ليس هو، بل يشبهه، لعله هو، يقف أمامه يدعوه، الرجل يتردد، يؤكد له أنه لن يجد في مثل هذا الوقت المتأخر سيارة أجرة، يؤكد له أنه جار طيب، يؤكد له أنه صديق قديم، ثم ينطلق به والمرأة يخترق شوارع المدينة.

هل يمضي بهما إلى خارج البلدة، يدخل بهما طريقاً ريفية حتى إذا بلغ بهما الخلاء أطفاً المحرك بغتة، التفت إليهما، دعاهما إلى مساعدته في دفع السيارة، حيلة قديمة تتجدد حتى إذا صاروا وراء السيارة اندفع بها إلى وراء فيدوسهما كليهما.

وينعطف بهما إلى حيث أشار الرجل، وأمام عمارة متواضعة يقف، ويهبط الرجل، هل ينطلق الآن يندفع بالسيارة ويفر بالمرأة إلى غابة، ويفترسها، ثم يقطعها إرباً إرباً؟

المرأة تشكره، الرجل يحييه، يتركهما، ثم يمضي إلى المكتب، ويرد السيارة.

ويمضي يجر خطاه يأكله الندم على ما فكر فيه، التعب يهدده، والحرز يكوئه، والقهر يخنقه.

وينسرب إلى أعماقه نداء عذب، فيرفع وجهه إلى السماء، فيرى النجوم تتلألأ، فتترف روحه، وتشف نفسه وتصفو.

ويسرع إلى المسجد مليباً النداء، يخلع حذاءه في الخارج، تاركاً كل ما علق به من غبار الرصيف والسيارة والوظيفة والحياة، يصب الماء على يديه، يتوضأ، يحس بكل الأوضار تتساقط من عينيه وساعديه ورجليه، مع قطرات الماء.

وراء الإمام يصغي إلى الآيات يشعر كأنه يحلق في عالم آخر غير ما فكر فيه أو عرفه أو رآه، يحس كأنه ولد من جديد اكتسب حياة جديدة، فجأة تنتابه رغبة قوية في البكاء فيبكي.

في طريق العودة إلى البيت يحس بالنقاء والصفاء، يستشعر جمال الكون وروعة نظامه وبهائه، تلفحه ريح باردة تزداد روحه صفاء وشفافية.

في مدخل البناء تصطك ركبته يرتعش لا يقوى، تنزل إليه ابنته، يسرع إليه ولده، ولكن لا جدوى، الجسم وهن وخارت قواه، والعروق جفت، وتوقف القلب.

في الدور السابع يختلف الولدان على متاع المنزل وعلى الأواني والزجاج وبعض الحاجات، البنت تمضي إلى غرفة أبيها تتأمل صورته، تحس شيئاً ما في نظرة العينين، تخرج إلى الشرفة، فتطل على الكون والحياة والعالم، ومع نسمات الفجر الأولى وإشراق الضياء ترى زهرة بيضاء تتفتح فتحس بدفق الحياة، وفي أعماق روحها تتخيل ملامح قصيدة.